مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
المجلد :6 / العدد: 4 ISSN :2353-0499
E-ISSN :2602-5264
تاريخ الارسال : 2018/09/17، تاريخ القبول: 2019/01/05، تاريخ النشر: 2019/06/13

النظام الأكمل وتلازمية الشر والخير

الدكتور :نورالدين دنداني
جامعة المصطفى العالمية-إيران.

الملخص

تناولت هذه الدراسة مسألة النظام الأحسن بوصفه من أهم المسائل الفلسفية التي كانت وراء ظهور العديد من التيارات الفكرية المتضاربة منذ القدم، فالحديث عن النظام الأحسن والأكمل، يستدعي الحديث عن مسألة الشرور التي تجمع ما يسمى بالمصائب والنقائص، والآلام، والموت، والكوارث الطبيعية... وغيرها من الأمور الكثيرة، ومن ثم يكون الأمر مدعاة للحديث عن مدى إمكانية الجمع بين النظام الأحسن، والشرور بمختلف أنواعها.

الكلمات المفتاحية: الفلسفة الإسلامية، النظام الأحسن، الشرور، العناية الإلهية.

Abstract:

This study dealt with the issue of the best system as one of the most important philosophical issues that led to the emergence of many conflicting intellectual currents from ancient times. Dealing with the issue of the best and most perfect system calls for dealing with the mutter of evils which includes calamities, imperfections, pain, death, natural disasters ... and many other things. Hence the reason of discussing the possibility of combining the best system with evils of various kinds.

Key words Islamic philosophy, the best system, evils, divine providence.

مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
المجلد :6 / العدد: 4 ISSN :2353-0499
E-ISSN :2602-5264
تاريخ الارسال : 2018/09/17، تاريخ القبول: 2019/01/05، تاريخ النشر: 2019/06/13

مقدمة:

تطرح هذه الدراسة جملة تساؤلات تتعلق بماهية النظام الأحسن والأكمل، وعرض الأدلة التي أقامها الفلاسفة لإثبات ذلك، ثم مناقشة ما يثار في هذه المسألة من شبهات وإشكالات على ضوء الفلسفة الإسلامية التي تعد مدرسة كاملة متكاملة تتمتع برؤية كونية منسجمة.

لنخلص إلى أن جلّ الشبهات منتفية، ويعود سبب انتفائها إلى ضعف المباني المعتمدة في إثارتها، فلم يعرفوا حقيقة المقولات الثلاثة التي هي حجر الأساس لحل الكثير من الإشكاليات العويصة وهي:

أن واجب الوجود واجب من جميع الجهات.

وأن الكون غير منحصر في العالم المادي.

وأن الإنسان خُلق من أجل بلوغ كماله انطلاقا من هذا العالم.

أولا: النظام الأحسن وسؤال الماهية:

تعرض الحكماء لمسألة النظام الأكمل عندما بحثوا مسألة العناية الإلهية وكيفية دخول الشر في القضاء الإلهي [1] وهذه المسألة من أهم الأبحاث التي شغلت أذهان الفلاسفة والحكماء منذ القدم، فكان السؤال الذي يطرح عادة؛ هل هذا النظام الموجود هو أفضل ما في الإمكان، ولا يمكن أن نتصور أفضل وأحسن وأكمل منه، بعبارة أخرى هل هذا النظام خال من أي نقص وعيب وشر ومن ثم يمكن عده هو النظام الأكمل والأحسن؟

بعض الدارسين ينظرون إلى هذا الكون نظرة موضوعية عميقة؛ حيث تنعكس له الصورة الجميلة عن هذا الكون المترامي الأطراف الذي يحمل بين طياته أبهى الصور، وأجملها، وأتقنها، أما بعضهم الآخر فينظر إلى الكون نظرة تشاؤمية ضيقة، وبخاصة أولئك الذين ينطلقون من تصورات مادية.

[1] - ابن سينا، أبو علي حسين بن عبد الله، الشفاء الالهيات، به تحقيق سعيد زايد، مكتبة آية الله المرعشى، قم، 1424 هـ ق.، ص 414.

مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
المجلد :6 / العدد: 4 ISSN :2353-0499
E-ISSN :2602-5264
تاريخ الارسال : 2018/09/17، تاريخ القبول: 2019/01/05، تاريخ النشر: 2019/06/13

وعليه لا بد من التأكيد أن مسألة النظام الأحسن من أهم المسائل الفلسفية التي كانت وراء ظهور الثنوية التي ترى أن للكون إلهين؛ إله الخير، وإله الشر، وهي أيضا وراء ظهور المادية التي اختزلت كل الكون في مخابرها الضيقة والتشاؤمية التي فقدت معنى الحياة بعدما قطعت الارتباط بالسماء وضيّقت واسعا، ولم يفلح الفلاسفة في الغرب من إعطاء جواب دقيق لهذه المسألة المهمة، بل تحيروا وتاهوا وفي النهاية اختاروا الإلحاد وإنكار وجود الله تعالى.

لذلك ارتبطت ماهية النظام الأحسن بطبيعة الأدلة التي أقامها الفلاسفة لأجل إثبات ذلك، دون أن يتجاهلوا مدى تماشي أو انتفاء وجود الشرور والنقائص مع النظام الأحسن والأكمل، ومن إمكانية أن يكون العالم المادي الذي هو جزء من النظام الأحسن خاليا من كل عيب وشر ونقص.

لذلك ستحاول هذه الدراسة تناول المسألة على ضوء الفلسفة الإسلامية التي شكّلت رؤية كونية، متماسكة دقيقة في طرحها، عميقة في إجاباتها، استطاعت أن تخرج الإنسان من ظلمة الشك والتردد إلى نور اليقين والطمأنينة، لأنها استطاعت التوفيق بين العقل والكشف والشرع، واستلهمت كل هذا من مقدمات البرهان، ومفاهيم الكشف ومفردات الدين القطعية للوصول إلى الحقائق.

فبعد أن تجاوزنا مرحلة الشك والسفسطائية وأثبتنا الواقعية، وأن هذا الواقع الخارجي بما فيه الانسان هو أفضل وأكمل، ومن ثم لا يمكن أن نفرض ما هو أفضل منه، صار مجال البحث في النظام الأحسن لا ينحصر في العالم المادي فقط، بل يشمل كل الموجودات بما فيها المجردات أو ما يسمى بالعقول عند الفلاسفة والتي يُعبَّر عنها بالملائكة في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة.

الملاحظة الأخرى التي لا بد من الإشارة إليها تتعلق بالمقصود من النظام الأحسن، الذي نعني به أنه الأحسن باعتبار الكل وليس باعتبار الإنسان فقط أو باعتبار قسم من هذا الكون، فالحكماء عندما ينظرون إلى هذا الكون ينظرون إليه على أنه شيء واحد متماسك ومترابط وكل شيء في مكانه المناسب وبالقدر المناسب، مع التأكيد أن

مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
المجلد :6 / العدد: 4 ISSN :2353-0499
E-ISSN :2602-5264
تاريخ الارسال : 2018/09/17، تاريخ القبول: 2019/01/05، تاريخ النشر: 2019/06/13

الإنسان هو الجزء الرئيس والمهم في هذه المنظومة، وهو الخليفة وهو أفضل الموجودات على الإطلاق.

وانطلاقا مما سبق ولإثبات فكرة النظام الحسن والأكمل لا بد من حل إشكالية الشر، بأقسامه الثلاثة [1] وحل المسائل المتعلقة بالعدل الإلهي، فالشائع عند أهل الايمان الذين يتبعون الدين ويؤمنون بالله، أنهم يقنعون أنفسهم بجواب عام ملخصه: إن الأدلة اليقينية قد قامت على إثبات وجود الله القادر العليم الحكيم، وعليه فإن الباعث على الظلم إما أن يكون عقدة روحية وإما الاحتياج، وهو مفقود في حق الله تعالى، فالظلم إذن لا معنى له بالنسبة إليه. لذلك ليس هناك دليل على أن الله قد خلق الكون بشكل مخالف للنظام الأصلح والأحسن، ولو كان ما يطلق عليه بعضهم اسم الشرور مضادا لنظام الأصلح والأحسن لما خلقه.

وإذا اعترضهم أمر لا يستطيعون توجيهه توجيها صحيحا، فإنهم يعتبرونه لونا من ألوان الحكمة والمصلحة المجهولة، والله استأثر بعلمها وهو نوع من الإحالة إلى المجهول في حقيقة الأمر.

بعض المؤمنين بوجود الله حاولوا حل مشكلة الشر أيضا من خلال إعادة النظر في صفات الله تعالى، والتشكيك في صحة التصور الديني التقليدي القديم عن صفاته عزّ وجلّ. حيث ذهب بعض المؤمنين بوجود الله من جماعة لاهوت الصيرورة إلى تضييق حدود القدرة الإلهية، وربما يمكن درج ما تبناه جان استيوارت مل[2](1806-1873م) في هذا السياق، إذ أنكر إطلاق العلم والقدرة كصفتين من

[1] - في الحكمة المشائية أثبتوا ثلاثة عوالم علم الألوهية وعالم العقول: وهو عالم التجرد التام من المادة ولوازمها وآثارها، وعالم المادة وفي حكمة الاشراق والحكمة المتعالية أضافوا إلى ذلك عالم المثال وهو عالم التجرد من المادة دون آثارها والذي يتوسط عالم العقول وعالم المادة.

[2] - يبيّن كوبلستون رأي جون استوارت ميل: فكرة " مل" هي أنه إذا كان الله قادرا على كل شيء فهو قادر على أن يمنع الشر، وإذا لم يكن كذلك، فإنه لا يكون خيرا على نحو لا متناه. ليس هناك فائدة لأن نقول مع "دين مانسل"Dean Mansel أن لفظ خير هو صفة لله على سبيل المماثلة، وليس بنفس المعنى الذي يستخدم به بالنسبة للموجودات البشرية. لأن ذلك يساوي، بالفعل القول بأن الله خير بأي معنى يمكن أن نعطيه للفظ. وعلى الرغم من ذلك، إذا أردنا أن نثبت أن

مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
المجلد :6 / العدد: 4 ISSN :2353-0499
E-ISSN :2602-5264
تاريخ الارسال : 2018/09/17، تاريخ القبول: 2019/01/05، تاريخ النشر: 2019/06/13

صفات الله وتحديدهما، ويرى ابن ميمون أن حلّ مشكلة الشرّ هو الدافع الأساس الذي دفع ببعض الفلاسفة إلى إنكار علم الله بالجزئيات، أضف إلى ما تقدم كله أن بعض المؤمنين يرون ضرورة تعديل النظرة إلى الصفة الثالثة من صفات الله، وهي صفة الخيرية وذلك بافتراض أنّ خيرية الله تتجلى في الخلق الأول، وليس بالضرورة أن تظهر في الرعاية الأبوية الدائمة للكون وما فيه من المخلوقات[1].

ثانيا: الأدلة على النظام الاكمل والأحسن:

1 . البرهان اللمي [2]

لو كان هناك عالم أحسن من هذا النظام؛ عالم ممكن الوجود ولم يوجده سبحانه تعالي لكان عدم إيجاده إمّا لعدم علمه، أو لعدم قدرته، أو لعدم جوده، والتّالي بأسره مستحيل، والمقدم مثله؛ أي " ليس في الإمكان أبدع مما كان." هذه العبارة المختصرة التي تعد قاعدة فلسفية اعتمد عليها جلّ الفلاسفة الإسلاميين في استدلالاتهم ونذكر منهم:

أ . الإمام أبو حامد الغزالي: أورد في كتابه إحياء علوم الدين: "كل ما قسم اللّه تعالى بين عباده من رزق وأجل، وسرور وحزن، وعجز وقدرة، وإيمان وكفر، وطاعة ومعصية؛ فكله عدل محض لا جور فيه، وحق صرف لا ظلم فيه، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي، وكما ينبغي، وبالقدر الذي ينبغي: وليس في الإمكان

الله خير، فإنه يجب علينا أيضا أن نقول إن قوته محدودة أو متناهية. فردريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة (المجلد الثامن-من بتنام إلى رسل)، ترجمة محمود سيد أحمد، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، ص 137.

[1] - موسى بن ميمون القرطبي الأندلسي، دلالة الحائرين، مكتبة الثقافة الدينية، 1972م.، ص 518-519.

[2] - البرهان اللمي هو الذي يستدل فيه بالعلة على المعلول، ويقابله البرهان الإني الذي يستدل فيه بالمعلول على العلة، وكما تعلمون أنه يقسم البرهان في المنطق إلى اللمي والاني وذلك بحسب الحد الأوسط فإنه إذا كان واسطة في الاثبات والثبوت معا كان البرهان لميّا وإن كان الحد الأوسط واسطة في الاثبات فقط كان البرهان إنيّا.

مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
المجلد :6 / العدد: 4 ISSN :2353-0499
E-ISSN :2602-5264
تاريخ الارسال : 2018/09/17، تاريخ القبول: 2019/01/05، تاريخ النشر: 2019/06/13

أصلا أحسن منه، ولا أتم، ولا أكمل. ولو كان، وادخره مع القدرة، ولم يتفضل بفعله، لكان بخلا يناقض الجود، وظلما يناقض العدل، ولو لم يكن قادرا لكان عجزا يناقض الإلهية".[1]

الملاحظ أن برهان أبي حامد الغزالي فيه إشكال؛ وهو أنه يمكن أن يكون هناك نظام أحسن من هذا النظام، وسبب عدم إيجاده لا يرجع إلى الفاعل يعني الباري تعالى؛ لأنه تام الفاعلية، ودائم الفضل والجود على البرية، بل يعود عدم ذلك إلى قابلية القابل المحدودة التي لا تستطيع أن تستوعب ذلك الفيض والجود. وبعبارة أخرى فاعلية الفاعل عطاء مطلق غير محدود، لكن قابلية القابل أخذ مقيد بقدر الاستيعاب.

ب . صدر المتألهين: يري مؤسس الحكمة المتعالية أن هذا النظام على أكمل وجه، ولا يوجد اختلاف بين الحكيم والمتكلم وإن اختلفت مشاربهم، واستطاع من خلال تقرير هذا الاستدلال وصياغته من جديد أن يرفع الإشكال السابق فقال: "وهذا مما ذكره الغزالي في بعض كتبه، ونقل عنه الشيخ الكامل محي الدين العربي في الفتوحات المكية واستحسنه، وهو كلام برهاني فإن الباري جل شأنه غير متناهي القوة، تام الجود والفيض، فكل ما لا يكون له مادة ولا يحتاج إلى استعداد خاص، ولا أيضا له مضاد ممانع؛ فهو بمجرد إمكانه الذاتي فائض منه تعالى على وجه الإبداع، و مجموع النظام له ماهية واحدة كلية وصورة نوعية وحدانية بلا مادة، وكل ما لا مادة له نوعه منحصر في شخصه، فلا محالة ليس ذاته مرهونة- باستعداد محدود أو زمان موقوت، فلا محالة مبدع فلم يمكن أفضل من هذا النظام نوعا و لا شخصا".[2]

[1] - محمد الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، تحقيق عبد الرحيم بن حسين حافظ العراقي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى. ج13 ص181.

[2] - صدر الدين محمد الشيرازي، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، دار احياء التراث العربي، بيروت الطبعة الأولى، 2002م، ج7 ص 91.

مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
المجلد :6 / العدد: 4 ISSN :2353-0499
E-ISSN :2602-5264
تاريخ الارسال : 2018/09/17، تاريخ القبول: 2019/01/05، تاريخ النشر: 2019/06/13

فهذا البرهان هو في الحقيقة استدلال بالعناية الإلهية، وهي علم اللّه بما ينبغي أن يكون عليه الوجود، حتى يكون على أحسن نظام وأكمله، والعناية هي التي تجمع المعاني الثلاثة من العلم والعلية والرضا، وقد صرح صدر المتألهين بهذا الأمر قائلا: "إن العناية هي كون الأول تعالى **عالما لذاته** بما عليه الوجود في النظام الأتم والخير الأعظم، وعلة لذاته للخير والكمال بحسب أقصى ما يمكن، وراضيا به على النحو المذكور، وهذه المعاني الثلاثة التي يجمعها معنى العناية من العلم والعلية والرضا كلها عين ذاته؛ بمعنى أن ذاته عين العلم بنظام الخير، وعين السبب التام له وعين الرضا به، وهو المشية الأزلية فذاته بذاته صورة بنظام الخير على وجه أعلى وأشرف؛ لأنه الوجود الحق الذي لا غاية له ولا حد في الكمال وراءه، فإذا كان كذلك فيعقل نظام الخير على الوجه الأبلغ في النظام والأتم بحسب الإمكان، فيفيض عنه ما يعقله نظاما وخيرا على الوجه المذكور الذي عقله فيضانا وصدورا متأديا إلى غاية النظام وصورة التمام على أتم تأدية".[21]

2. لزوم السنخية بين الفعل والفاعل:

يوجد بين العلة والمعلول تناسب خاص يعبر عنه بالسنخية بين العلة والمعلول، وهي أحد فروع مسألة العلة والمعلول والمقصود من العلل هنا هو العلل المانحة للوجود، وليست العلل المعدة، ومفاد هذه القاعدة هو أن العلة تتمتع بالكمال الوجودي الذي للمعلول، ولكن في مرتبة أرفع وأعلى، فذات الله تعالى تتصف بالصفات الكمالية المطلقة من قبيل الجود والفيض والرحمة والحكمة، وصفة الحكمة من بين الصفات الحاكمة على جميع الأسماء والصفات، فهو خالق يخلق ما يشاء بحكمة، ويرزق من يشاء بحكمة، وهادي يهدي من يشاء بحكمة، وهكذا الأمر في بقية الصفات الإلهية، لذلك اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون التكوين والتشريع على ما هو عليه؛ فليس في الإمكان أبدع مما كان، وهذا لعلمه بحقائق الأشياء وما

[1] - صدر الدين محمد الشيرازي، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، دار احياء التراث العربي، بيروت الطبعة الأولى 2002م.، ج7 ص 57.

مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
المجلد :6 / العدد: 4 ISSN :2353-0499
E-ISSN :2602-5264
تاريخ الارسال : 2018/09/17، تاريخ القبول: 2019/01/05، تاريخ النشر: 2019/06/13

يصلحها، فلا يصدر منه إلا الأكمل، ولا يتصف الباري تعالى بأية صفة من صفات النقص مثل: البخل والظلم والحسد والتشفي.... وما إلى ذلك، فكل ما يصدر عنه هو في مجمله بمقتضى قاعدة السنخية؛ نورانيا، وجميلا، وحسنا، ومريدا للخير وحكيما، قال تعالى: «قلْ كلٌّ يعمل على شاكلته» (الإسراء/84)

إن نظام الكون الحاضر هو النظام الأكمل والأحسن، وإن جهاز الوجود قد صور على أفضل صورة، فلا يمكن تصور ما هو أحسن و أفضل مما عليه الآن، جاء في القرآن الكريم: «الذي أحسن كل شيء خلقه» (السجدة:7). و ذلك لوجود السنخية بين الفعل والفاعل، فكلما كان الفاعل كاملا من حيث الصفات الوجوديّة، و منزها عن أي نقص وعيب كان فعله كذلك. والواجب تعالى واجب من جميع الجهات، وهو يتصف بالكمالات الوجودية على وجهها الأكمل والأتم، فما يصدر عنه يكون على أحسن وجه وأكمله.

3 . الدليل الإنيّ:

إذا تأملنا هذا العالم المملوء بالغرائب والعجائب، بدءا من الإنسان والحيوانات والنباتات والأرض والسماء وغيرها مما خلق الله تعالى، ندرك أن هذا العالم منظم ومصون من الهرج والمرج والفوضى والصدفة، فهذا العالم الموجود وُجِد على أحسن شكل وأفضله، وهذه العلوم والمخابر التجريبية كل يوم تقدم لنا الجديد، وتكشف الستار عن الحقائق المحيرة التي كانت غامضة في السابق، فالإنسان عاجز عن إدراك حقيقة نفسه وبدنه الذي هو أقرب شيء إليه فضلا على أن يدرك الحقائق السماوية والأرضية وما بينهما، وهذا يدل على عظمة المبدع وسعة رحمته وفخامة جوده ولطف عنايته.

ثالثا: الشرور وشبهة تماشيها مع النظام الأحسن:

فالسؤال الذي يبحث عن الجواب وفقا لما ذهب إليه الفلاسفة والحكماء هو هل وجود الشرور والنقائص والفساد يتماشى مع النظام الأحسن (الأكمل)؟

المجلد :6 / العدد: 4 ISSN :2353-0499
E-ISSN :2602-5264

تاريخ الارسال : 2018/09/17، تاريخ القبول: 2019/01/05، تاريخ النشر: 2019/06/13

1 . عدم وجود الدوافع القبيحة في فعل الله تعالى:

أعمال الخير والكمال التي تصدر عن الله هي في الحقيقة من باب اقتضاء ذاته وصفاته الكمالية. وأن مقامه ومرتبته عزّ وجلّ منزهة عن فعل القبيح. إن هذا الوجوب-أي القيام بأفعال الخير-والامتناع -أي تجنب فعل القبيح-إنما هو بمقتضى صفاته الكمالية ويعبر عن هذا الوجوب في المصطلح الكلامي بـ "يجب عنه" وهو في قبال الوجوب الفقهي الذي يعبّر عنه بـ " يجب عليه" الذي يطلق على المكلفين؛ وعليه شبهة الجبر غير واردة أصلا؛ لأن صدور الشر والظلم والجور ... وغيرها هو ناتج عن أحد الأسباب التالية:

أ-الاحتياج والافتقار.

ب-جهل الفاعل بالخير.

ج-عجز الفاعل وعدم قدرته على فعل الخير.

د-بخل الفاعل في فعل الخير.

فوجود أحد هذه العوامل والأسباب هو الموجب والدافع لفعل الظلم، وهذا ما يراه المتتبع للأفعال الظالمة التي تصدر عن الناس، وبما أن الله تعالى يتصف بأضداد هذه الصفات والدوافع من القدرة المطلقة، والغنى المطلق وإرادة الخير، يثبت بالبرهان اللمي أن جميع أفعال الله تعالى هي خير محض، ولا يصدر عنه أي نوع من أنواع الشرور والظلم.

2 . الشر عدم محض:

هذه النظرية ينسبها بعض الفلاسفة إلى أفلاطون (348-427ق م)، والذين يقولون إن الشر أمر عدمي لا يقصدون بذلك أن ما يعرف في أوساط الناس باسم الشر لا وجود له حتى يقال إن هذا مخالف للضرورة، فنحن نحس ونرى عيانا وجود مصاديق كثيرة للشر؛ كالعمى، والصمم، والمرض، والجهل، والضعف، والموت، والزلازل ... وغيرها، فلا أحد ينكر وجودها، ولا أحد ينكر أنها منغصة للحياة.

يرى الفلاسفة الإسلاميون أن الوجود يساوق ويساوي الخير، وأن الشر منتزع من الأعدام، يقول الشيخ الرئيس ابن سينا بعد تعرّيفه للخير: "والشر لا ذات له بل هو

مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
المجلد :6 / العدد: 4 ISSN :2353-0499
E-ISSN :2602-5264
تاريخ الارسال : 2018/09/17، تاريخ القبول: 2019/01/05، تاريخ النشر: 2019/06/13

إما عدم جوهر أو عدم صلاح لحال الجوهر".[1] الشر بالذات لا حقيقة له، بل هو عدم يقول صاحب المباحث المشرقية: "واعلم ان الشر بالذات هو عدم ضروريات الشيء وعدم منافعه مثل عدم الحياة، وعدم البصر فإن الموت والعمى لا حقيقة لهما إلا أنهما عدم الحياة وعدم البصر، وهما من حيث هما كذلك شران فإذا ليس لهما اعتبار آخر ليكونا بحسبه شرين، وإما عدم الفضائل المستغنى عنها مثل عدم العلم بالفلسفة، فظاهر أن ذلك ليس بِشَرٍّ، وأما الأمور الوجودية فإنها ليست شرورا بالذات بل بالعرض من حيث أنها تتضمن أمورا غير ضرورية أو نافعة". [2]

الخيرات عين الوجود والشرور عين العدم فكلما تحدثنا عن الشرور فإننا نكون قد تحدثنا عن العدم والفقدان؛ لأن الشرور إما أن تكون عدما بذاتها، وإما تكون وجودا يستلزم لونا من العدم أي أنها موجودات خيرة وجيدة بما هي في ذاتها، ولكنها تصبح شرا؛ لأنها تستلزم لونا من ألوان العدم، ومن هذه الجهة فهي نوع من الشرور وليس من جميع الجهات. فالجهل والفقر والموت من الشرور وهي عدم بذاتها أما الزواحف السامة والوحوش المفترسة والمكروبات والآفات، فهي ليست عدما بذاتها، وإنما هي موجودات تستلزم عدما، وهذا ما يقصده الحكماء من قولهم: إن الشرور ليست مجعولة بالذات، وإنما مجعولة بالتبع والعرض.

ودور الإنسان في هذا النظام التكاملي الضروري للكون هو جبران النقائص وملء الفراغات واقتلاعها جميعا من صفحة الوجود.

3 . الشر أمر نسبي:

تتصف الأشياء بنوعين من الصفات: الصفات الحقيقية والصفات النسبية، فإذا ثبتت صفة لشيء ما بقطع النظر عن أي شيء آخر فتلك الصفة حقيقية، فالصفة الحقيقية هي التي يكفي لاتصاف ذات بها فرض الذات والصفة فقط، أما

[1] - ابن سينا، أبو علي حسين بن عبد الله، الشفاء الالهيات، به تحقيق سعيد زايد، مكتبة آية الله المرعشي، قم، 1424 هـ ق، ص 355.

[2] - الرازي، فخر الدين، المباحث المشرقية في علم الالهيات والطبيعيات، انتشارات بيدار، قم، الطبعة الثانية، 1411هـ ق.ج2 ص520.

مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
المجلد :6 / العدد: 4 ISSN :2353-0499
E-ISSN :2602-5264
تاريخ الارسال : 2018/09/17، تاريخ القبول: 2019/01/05، تاريخ النشر: 2019/06/13

الصفة النسبية فهي التي لا يكفي فيها فرض الموصوف والصفة دون فرض أمر ثالث ينسب ويربط بينهما. الحياة صفة حقيقية أما الصغر والكبر فهما صفتان نسبيتان.

المقصود من أن الشر أمر نسبي هو النسبي الذي يقابل الحقيقي، وليس النسبي الذي يقابله المطلق، يقول مرتضى مطهري: "ونتساءل الآن أقبح الشرور حقيقي أم نسبي؟

الشرور على نوعين: الشرور التي بنفسها أمور عدمية، والشرور التي بنفسها أمور وجودية ولكنها تتصف بالشر لكونها تؤدي إلى سلسلة من الأمور العدمية.

فالشرور التي بذاتها أمور عدمية كالجهل والعجز والفقر، فهي صفات حقيقية لكنها عدمية، أما الشرور التي بذاتها أمور وجودية ولكنها تتصف بالشر؛ لأنها منشأ أمور عدمية مثل: السيول، والزلازل، والزواحف السامة، والحيوانات المفترسة، والمكروبات والأمراض ... فلا شك أن الشر فيها صفة نسبية. فما هو شر من هذه الأمور فهو شر بالنسبة إلى شيء معين، إنّ سم الحية ليس شرا للحية نفسها، وإنما هو شر بالنسبة إلى الأنسان أو الموجودات الأخرى التي تجد ضررا منه... إذن الشر المطلق لا وجود له في الكون والموجود هو الشر النسبي. [1]

ويبقى هنا سؤال وهو لماذا لم يخلق الله العالم بحيث لا ينتفع موجود على حساب موجود آخر، ولا يتضرر موجود من آخر وبعبارة أخرى لماذا لم يخلق الله هذا العالم خاليا حتى من الشر النسبي؟ وهذا ما ستحاول الدراسة بيانه والإجابة عنه في الاستدلال الآتي:

4 . التلازم بين الشر والخير:

من المعالجات الهامة في حل مشكلة الشر القول بـ: قبح ترك فعل الخير الكثير الذي يلازمه شر قليل، ومن مقدمات هذا الاستدلال:

أ ـ الخير والشر متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر في عالم المادة.

ب ـ الخير في العالم المادي أكثر من الشر.

[1] - مرتضى مطهري، العدل الإلهي، ترجمة عبد المنعم الخاقاني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين قم. ص 164.

مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
المجلد :6 / العدد: 4 ISSN :2353-0499
E-ISSN :2602-5264
تاريخ الارسال : 2018/09/17، تاريخ القبول: 2019/01/05، تاريخ النشر: 2019/06/13

ج-لا يحسن ترك الخير الكثير حذرا من الشر القليل.

ويرى أرسطو أن العوالم الممكنة من حيث مقادير الخير والشر نجدها على خمسة أقسام:

- عالم كله خير محض.
- عالم كله شر لا خير فيه.
- عالم يغلب خيره على شره.
- عالم يغلب شره على خيره.
- علم يتساوى فيه الخير والشر.

وما يتنافى مع صفات الله تعالى من هذه الأقسام هو خلق الشر المحض، وعالم شره أكثر من خيره، وعالم يتساوى فيه الخير والشر، والله لم يخلق هذه العوالم. ولكن ترك خلقّ العالم الذي يغلب عليه الخير هروبا من الشرّ القليل الملازم له هو بحد ذاته شرّ كثير، وعلى ضوء هذا التقسيم يرى أكثر المؤمنون بالأديان أن العالم المادي هو عالم يغلب عليه الخير والعالم الذي هو خير محض هو عالم المجردات وكلاهما مخلوقان.

رابعا: العالم المادي ومدى انتفاء الشرور:

يتبادر إلى الأذهان سؤال مؤداه: هل يمكن للعالم المادي الذي هو جزء من النظام الأحسن أن يكون خاليا من كل عيب وشر ونقص وفساد أم لا؟ فبعضنا قد يتساءل: لماذا لم يخلق الله تعالى هذا العالم خاليا من جميع النقائص، والعيوب، والآلام، والأمراض، والكوارث الطبيعية؛ كالزلازل والبراكين والحرائق والسيول ... وغيرها من الأمور التي لا تمنح الإنسان فسحة العيش في هدوء وهناء وأمن ورفاه؟ هذه التساؤلات وغيرها حاول الفلاسفة معالجتها بتقديم إجابات تحل الإشكال، ولعل أهمها هذان الدليلان:

1 . لولا التضاد لما صح دوام الفيض:

لولا التضاد ما صح دوام الفيض من المبدأ الجواد، ولوقف الجود ولتعطل العالم العنصري عن قبول الحياة التي يحصل بها نيل المقصود، وبقي أكثر ما يمكن

مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
المجلد :6 / العدد: 4 ISSN :2353-0499
E-ISSN :2602-5264
تاريخ الارسال : 2018/09/17، تاريخ القبول: 2019/01/05، تاريخ النشر: 2019/06/13

في مكمن الإمكان وكتم العدم البحت. هذه القاعدة الفلسفية التي تعد من ابتكارات شيخ الإشراق السهروردي صاحب حكمة الإشراق حيث يقول: "ومن ضرورة اللّانهاية أن يكون في عالم الكون والفساد تضادّ، وكون الحرارة والبرودة متضادّين ليس بفعل فاعل بل التضادّ من لوازم ماهيّتهما، فلولا التضادّ ما صحّ الكون والفساد، ولولا الكون والفساد ما صحّ وجود أشخاص غير متناهية. والأنواع العنصريّة لا يصحّ حصولها إلّا بتفاعل، ومن ضرورة التفاعل تضادّ ما، فصحّ أنّه لولا التضادّ ما صحّ دوام الفيض على التجدّد المستمرّ، ولم يحصل من النفوس الناطقة المبلغ غير المتناهي، ولتعطّل العالم العنصري عن الحياة وبقي على العدم البحت أكثر ما يمكن. فالذي يوجد شرّا بحسب شخص إذا وقع النظر الى النظام الكلّيّ، فهو خير من حيث أنّه ما صحّ الوجود مشتملا على الخير والنظام أبلغ ممّا هو عليه ومن الممكنات ما هو بريء من الشرّ والفناء -وهي العقول ونحوها -ومنه ما فيه خير كثير ويلزمه شرّ قليل، وظاهر أنّ ترك خير كثير لشرّ قليل شرّ كثير. ولا يصحّ أن يقال «لم ما جعل هذا القسم بريئا عن الشرّ؟» فإنه محال إذْ لا يصحّ أن يجعل الشيء غير نفسه، فإن لم يجعل هذا القسم كان وقع الاقتصار على القسم الاوّل، ولم يحصل هذا القسم. ومن المستحيل أن يجعل الماء غير الماء والنار غير النار. ومن الممتنع ان يكون نار تمسّ ثوبا ولا مانع عن الحرق ولا تحرقه. فاذا نظرت الى حال الذي احترق ثوبه بالنار وكمّيّة تضرّره به وكمّيّة انتفاعه بالنار في عمره، لم تجد بينهما نسبة. هذا في ذلك الشخص، فكيف لو انتفع النوع ولم يكن لذلك الشخص الّا التضرّر فحسب؟" [1]

2 . الشرور من لوازم عالم المادة:

إن الشرور التي تنشأ من الموجودات المادية هي من لوازم التضاد، والتضاد من لوازم الحركة، والحركة من لوازم العالم المادي. فإذا كنا نرفض وجود الشر، فعلينا أيضا أن نرفض فكرة الانتفاع من وجود الخير في العالم المادي أيضا، وهذا يؤدي إلى القول بترك الخير الكثير من أجل النجاة من الشر القليل، وعلى كل حال لو خُيّر كل

[1]- شهاب الدين يحي السهروردي، مجموعة مصنفات شيخ الاشراق ج2، تصحيح ومقدمة هانري كربن، الطبعة الثالثة، 2001م معهد العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية، طهران. ج1 ص 467.

مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
المجلد :6 / العدد: 4 ISSN :2353-0499
E-ISSN :2602-5264
تاريخ الارسال : 2018/09/17، تاريخ القبول: 2019/01/05، تاريخ النشر: 2019/06/13

عاقل بين أن يخلق الله العالم على ما هو عليه الآن؛ أي وجود الخير الكثير مع القليل من الشر، أو أن يترك خلقه في مكمن العدم، لا شك أن الاختيار سيقع على الأول؛ أي خلق العالم كما هو عليه الآن، وهنا لا بد من التأكيد على أنه لو فرضنا محالا غلبة الشرور في العالم المادي على الخيرات من الناحية الكمية، لأمكن لنا مع ذلك وصف خلق مثل هذا العالم بالحكمة؛ إذ إن الذي يحظى بالأهمية بين العقلاء هو ترجيح الكيفية على الكمية.

خاتمة:

خلصت الدراسة إلى جملة نتائج نذكر منها:

1 ـ اعتمد الفلاسفة طرائق استدلالية متنوعة لإثبات فكرة النظام الأحسن، ونقض ما يثار حولها من شبهات اعتمد أصحابها مسألة الشرور لنفي مقولة النظام الأحسن، ومن هذه الاستدلالات:

ـ البرهان اللمي الذي ينطلق من أوصاف واجب الوجود؛ أي السير من العلة إلى المعلول.

ـ والدليل الآخر هو لزوم السنخية بين العلة ومعلولها.

ـ والدليل الإني الذي يعتمد التأمل في المعلول للوصول إلى العلة.

2 ـ وأما عن سؤال الشرور ومدى تماشيها مع النظام الأحسن فقد قدم الفلاسفة عدة إجابات ذكرنا منها:

ـ أن دوافع الفعل القبيح منتفية في حقه الله عز وجل.